شعر الزهد
بين أبي نواس وأبي العتاهية

للدكتور شوقي عبد العليم حمادة

نبذة عن الشاعرين أبي نواس وأبي العتاهية

أبو نواس :

هو الحسن بن هانئ ولد في الأهواز سنة ١٤٥ هـ في خلافة أبي جعفر المنصور ... وكانت أمه أهوازية اسمها جلبان وكان أبوه دمشقيا من جند مروان ابن محمد آخر ملوك بني أمية أنفذه مروان إلى الأهواز فلقي جلبان فتزوجها وولدت له أولاداً ... منهم أبو نواس وأبو معاذ وقبل أن يتجاوز أبو نواس السنة الثانية من عمره انتقل والده إلى البصرة فنشأ فيها . ويقال إن والده مات وترك أولاده في كفالة أمهم فأسلمت أبا نواس إلى عطار يتخرج عنده في مهنة العطارة .. ولكن نفسه كانت تميل إلى غير هذه الصناعة . . وكان إذا قرأ شعراً ارتاحت نفسه إلى معانيه ونشأت عنده رغبة في النظم . . فإذا إجتمع بأديب أو راوية أو شاعر أو حضر مجلس أدب وسمع شعراً أحب ناظمه وتمنى أن يراه .. وكان في جملة من سمع أشعارهم وأحب الاجتماع بهم والبة بن الحباب وكان ظريفاً وصافا واتفق أن والبة قدم الأهواز ليمدح أبا بجير الأسدي عامل المنصور عليها فمر بذلك العطار فلقي أبا نواس فتوسم فيه النباهة والذكاء فجالسه وخاطبه فأنس فيه قريحة وقادة فقال له : إن فيك مخايل أرى ألا تضيعها وستقول الشعر فهل تصحبني ؟ ولم يكن أبو نواس يعرف مخاطبه فقال : ومن أنت ؟ قال : أنا أبو أمامة والبة بن الحباب ، فقال : نعم أنا والله في طلبك ولقد أردت الخروج إلى الكوفة بسببك لآخذ

عنك وأسمع منك . فسار أبو نواس معه إلى الكوفة ثم قدما بغداد .

وكان والبة وبعض شعراء تلك الأيام وندمائه يجتمعون كل ليلة لقول الشعر ، وكان أبو نواس يحضرهم فيسمع ويعى ويزداد كل يوم علما ودربة وكان يختلف إلى أبي زيد الأنصارى فيتعلم منه غريب الألفاظ ويتردد على أبي عبيدة معمر بن المثنى فيتعلم منه أيام الناس ، ونظر فى نحو سيبويه حتى أصبح فى الطبقة الأولى من المولدين واختلف المؤرخون فى سنة وفاته والأرجح أنها سنة ١٩٨ هـ .

أبو العتاهية :

أما أبو العتاهية فهو مولى واسمه إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان ولد بعين التمر سنة ١٣٠هـ ونشأ فى الكوفة ثم اشتغل بصناعة أبيه فجعل يصطنع الجرار ويحملها فى قفص على ظهره ويدور فى الكوفة ويبيع منه . ولكنه أحس من حداثته بقدرته على النظم . وكان الشعر يومئذ ديوان الناس وموضوع أحاديثهم وحيثما اجتمعوا تناشدوه وتذاكروا فيه .

واتفق يوما وهو يدور بقفص الجرار أنه مر بفتيان جلوس يتذاكرون الشعر ويتناشدونه فسلم ووضع القفص عن ظهره ثم قال : يافتيان أراكم تتذاكرون الشعر أفأقول شيئاً منه فتجيزونه ؟ فإن فعلتم فلكم عشرة دراهم فهزئوا منه وسخروا به لكنهم قالوا : نعم . قال : لابد أن يشترى بأحد الدرهمين رطب يؤكل فإنه قمار حاصل وجعل رهنه تحت يد أحدهم وقال أجيزوا : ساكنى الأجداث أنتم . وجعل بينه وبينهم وقتاً فى ذلك الموضع وعين نقطة منه إذا بلغتها الشمس ولم يجيزوا البيت غرموا الخطر ، فلما أعياهم ذلك جعل يهزأ بهم وتممه :

ساكنى الأجـــداث أنتم مثلنا بالأمس كنـــتم

ليت شعرى ماصنعتم أربحتم أم خسرتم ؟ !

وهى قصيدة طويلة من شعره .. فخجل الفتيان وأذاعوا خبره فى الكوفة فجعل أدباؤها وطلاب الشعر من فتيانها يأتون إلى دكانه يستنشدونه فينشدهم أشعاره فيأخذون ماتكسر من الخزف فيكتبونها فيه .

ثم وفد على بغداد فى أول خلافة المهدى ومدحه فقدمه وأكرمه وأحرز نفوذاً عظيما عنده ، ولما توفى المهدى وخلفه الهادى هنأه أبو العتاهية بقصيدة يتقرب بها إليه ولم تطل مدة الهادى فخلفه الرشيد فحظى عنده أبو العتاهية حظوة كبيرة حتى كان لايفارقه فى حضر ولا سفر وعين له راتباً شهريا . وكانت وفاته سنة ٢١١ هـ . تلك هى نبذة مختصرة عن الشاعرين اللذين كانا يعدان من أهم شعراء العصر العباسى الاول .

كيف نشأ الزهد وشعره ؟

لما كان الإنسان فى هذه الحياة عادة يحيا فى مجتمع متصارع الميول متباين النزعات متضارب المصالح متعدد الأهداف ، فقد اضطرته ظروف هذه الحياة أن يحقق أحد أمرين :

١ — إما أن يكيف المجتمع حسب هواه ومايعتقد أنه الحق الذى لاينبغى أن يحيد عنه البشر .

٢ — وإما أن يتكيف حسب هوى المجتمع الذى يعيش فيه . ولاريب فيه أن الأمر الأول صعب التحقيق يحتاج إلى جهاد متواصل وكفاح مرير ، لأن الحق دائما يكلف النفس بما يشق عليها ويقف أمام رغباتها الجائرة ونزواتها الطائشة ويجعلها تسير فى حدود النظام والالتزام بخلاف الباطل فهو على العكس من ذلك لايكلف النفس بما يشق عليها .

ومن هنا كان لابد من معارك مستمرة بين الحق والباطل والخير والشر

حيث يسقط الأبطال والشهداء ويسحقهم تيار المجتمع الذى يحيون فيه وهو ليس دائما تيار الحق والحقيقة .

يبقى الأمر الثانى : أى أمر التكيف مع المجتمع ، والتكيف فى هذه الحال ليس تحقيقاً من الإنسان لأمر من الأمور ولكنه انسياق مع التيار بعد إذ استحال عليه إيقاف التيار أو توجيهه وجهة أخرى .

وهذا هو طريق الأشخاص العاديين حيث يحنون الهام أمام العاصفة ويسيرون مع القطعان البشرية إلى حيث يريدهم المجتمع بمفاهيمه وتقاليده وعاداته ومعتقداته وحماقاته أن يسيروا .

لكن المجتمع يوجد فيه أفراد ليس فى وسعهم أن يحتملوا بطولة الشهداء وشهادة الابطال ، كما أنه ليس فى وسعهم أن يكونوا فى عداد القطعان البشرية من الأشخاص العاديين أو بمعنى آخر إنهم فى الصراع الدائر فى خضم الحياة بين تيار عاصف هادر أعمى أصم وبين حيوان يسير فى عكس المجرى قادرين على تحويل المجرى أو إيقافه وغير قانعين بالاستسلام لهذا المجرى الجارف فى اندفاعه واندفاقه لما فى طريقه من اللؤلؤ والحصى اعندئذ يخرج عن المجتمع فئة تعتزل الآخرين باحثة عن ذاتها فى ذات أسمى من ذوات البشر فتلوذ بالخالق للاتصال الوثيق به قاهرة المادة المالية فيها إلى المجتمع معززة الروح التواقة فيها إلى العلاء المطلق .

وهؤلاء هم الزهاد المنقطعون عن المجتمع الذين عرفتهم الهند فى ممارسة رياضة (اليوغا) والذين عرفتهم اليونان ولاسيما أصحاب الأفلاطونيـــة المستحدثة ثم بعض أحبار اليهود ورهبان النصارى وزهاد المسلمين .

ومن هؤلاء الزهاد شعراء يوضحون معتقداتهم فى أسلوب شعرى جميل يعرض وجهتهم عرضا شيقا جذابا يدعو الآخرين إلى التمسك بمبدئهم ومنهجهم

فى الحياة باعتباره أن الشعراء لهم رسالة إصلاحية فى المجتمع الذى يحيون فيه .

العوامل التى شجعت على ظهور الزهد فى القرن الأول ومابعده :

لقد انفرد القرن الأول فى الإسلام بالعوامل الكثيرة التى شجعت على ظهور الزهد وانتشاره . فالحروب الأهلية الطويلة الدامية التى وقعت فى عهد الصحابة وبنى أمية والتطرف العنيف فى الأحزاب السياسية وازدياد التراخى والاستهانة فى المسائل الخلقية وماعاناه المسلمون من عسف واستبداد من الذين يملون إرادتهم وآراءهم على غيرهم ممن أخلصوا فى إسلامهم .

كل ذلك حرك فى نفوس الناس الزهد فى الدنيا ومتاعها وحول أنظارهم نحو الآخرة ووضع آمالهم فيها .

ومن هنا ظهرت حركة الزهد قوية عنيفة وانتشرت على مر الأيام فكان زهداً دينياً خالصاً فى بادىء الأمر ثم دخل إليه بالتدرج بعض العناصر الصوفية حتى تحول فى النهاية إلى أعدم صورة عرفت للتصوف الإسلامى .

وكان القائمون على هذه الحركة من أشهر أتقياء المسلمين بل كان كثير منهم من القراء وأهل الحديث وعلماء الدين وأشهر شخصية فى الزهد تمثل روح العصر الأول هو الحسن البصرى (المتوفى سنة ١١٠هـ — ٧٢٠ م) وهو يعد فى نظر الزهاد الصوفية واحداً منهم إذ أنه كان ينزع إلى حياة روحية خالصة فى عبادته غير قانع بمجرد الصور الشكلية فى أدائها .

ويروى عنه أنه قال : مثقال ذرة من الورع السالم خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة(١) .

ولكن هذا الزاهد لم يكن إلا رائداً فى الزهد الصوفى وطريقته مثله مثل

---

(١) القشيرى : الرسالة القشيرية ص ٥٤ — طبعة مصر ١٣٣٠ هـ .

لأبراهيم بن أدهم (المتوفى سنة ١٦١ هـ) وداود الطائى (المتوفى سنة ١٦٥ هـ) والفضيل بن عياض (المتوفى سنة ١٨٧ هـ) وشقيق البلخى (المتوفى سنة ١٩٤ هـ) فكان رهدهم وليداً لحركة الإسلام ذاته ونتيجة لفكرة الإسلام عن الله فإنهم قد أحبوا الله ولكن خوفهم إياه كان أقوى وأشد من حبهم له وأدى بهم الحب إلى الاستسلام المطلق لإرادته تعالى لا إلى المعرفة الكاملة بوجوده .

وأهم العوامل التى دعت الحسن البصرى وغيره إلى الزهد هى الرعب الذى ألقاه القرآن فى قلوبهم من هول يوم القيامة وعذاب النار وما استولى على نفوسهم من الغم والحزن لشعورهم بالمعاصى مما دعا إلى قضاء حياتهم فى التوبة والاستغفار .

ومن بين هؤلاء الزهاد فى هذا العصر من لجأ إلى كهف أو مغارة أو هام على وجهه فى الصحراء مثل إبراهيم بن أدهم البلخى الذى يقال إنه كان أميراً من أمراء بلخ ولكنه زهد فى الحكم والملك ولبس الصوف وهام على وجهه فى بلاد الشام يعيش من كسب يده فى حراسة البساتين وغير ذلك .

سئل مرة لم هجرت الناس ؟ فقال : أمسكت بدينى بين صدرى وفررت به من بلد إلى بلد أرض ترفعنى وأرض تضعنى فمن رآنى ظننى راعياً أو مجنوناً أفعل ذلك لعلى أصون دينى من وساوس الشيطان وأمر بإيمانى سالماً من باب الموت(١) .

ولقد كانت نزعات الزهد تتجلى عند بعض الصحابة فى القرن الأول الهجرى مثل بلال مؤذن الرسول ﷺ وسلمان الفارسى رضى الله عنه ، وكان عامل الخوف عند هؤلاء الزهاد قوياً جداً حتى أن سفيان الثورى

---

(١) تذكرة الأولياء : فريد الدين العطار جـ٢ ص ٩٥ .

المتوفى عام ١٦١ هـ — ٧٧٧م قال : ماأطاق أحد العبادة ولا قوى عليها إلا بشده الخوف (١) .

وقال بشر بن منصور لعطاء السلمى : هب أن ناراً عظيمة أوقدت ونادى مناد أن من دخلها كان آمناً . فأجاب عطاء : أخشى أن يقضى على فرحى فأهلك دون أن أصل إليها(٢) .

وتوجد فى القرآن الكريم بعض الآيات التى تحث على الزهد مثل « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور(٣) » ، ومثل « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا »(٤) .

ولكن القرآن الكريم عندما يدعو إلى الزهد يدعو إليه فى غير تفريط ولا إفراط بدليل قوله سبحانه وتعالى . « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لايحب المفسدين »(٥) .

والحقيقة أنه لم يكن لزهد المسلمين فى ذلك العصر نظام خاص ولا مذهب خاص ولا مذهب معين وإن امتاز بشرح بعض المعانى والقصائد الواردة فى القرآن شرحا خاصا يتفق ونزعتهم إلى الزهد .

وهناك فى العصر العباسى الأول شعراء عرفوا فى بعض أدوار حياتهم بالمجون ثم غزتهم المعانى فنقلتهم من حال إلى حال ، والماجنون حين يزهدون

---

(١) الأصبهانى : حلية الأولياء جـ٦ ص ٣٦٢ :
(٢) نفس المصدر السابق :
(٣) سورة آل عمران الآية ١٨٥ .
(٤) سورة الكهف الآية ٤٦ .
(٥) سورة القصص الآية ٧٧ .

يصبح شعرهم قيثارة تندب بأوتار الندم والخوف ويمسون ولهم شمائل تنضح بالوداعة واللين .

أظهر شخصية تـكلمت فى الزهد بعد المجـــون أبو نواس :

وأظهر شخصية تـكلمت فى الزهد بعد المجون « أبو نواس » فهو يمتاز بالإخلاص فى كل مايلهج به من المعانى الشعرية . هو صادق العاطفة فى زندقته وفى فجوره وفى تقاه .

ولا نكاد نشعر بأن أبا نواس يعبث !! إنها المبادىء التى يتكلم بها معتنقوها ، فهو يشك ويلحد ويفسق ويتوب عن عقيدة . إنه نموذج لقوة الروح وحياة الوجدان فى مسالك الهوى ومسارب الضلال .

وأول ما ينبهنا من شعور أبى نواس بلوعة الندم قوله فى مطلع قصيدة يمدح بها الأمين :

يا دار ما فعلت بك الأيام ... ضامتك والأيام ليس تضام
عرم الزمان على الذين عهدتهم ... بك قاطنين وللزمان عرام
أيام لا أغشى لأهلك منزلا ... إلا مراقبـــة على ظلام
ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم ... وأسمت سرح اللهو حيث أساموا
وبلغـت ما بلغ امرؤ بشبـابه ... فإذا عصارة كل ذاك أثام

وهذه « العصارة » ظلت تلاحق أبا نواس بموهوب الخيال ولعله كان يقاسى اعتلاج هذه المرارة حين قال يدافع عن اقتراف الشهوات :

غدوت على اللذات منهتك الستر ... وأفضت بنات السر منى إلى الجهر
وهان على الناس فيما أريده ... بما جئت فاستغنيت عن طلب العذر
رأيت الليالى مرصدات لمدتى ... فبادرت لذاتى مبـادرة الدهـــر

وهذا الشعر يمثل مذهبه فى تعليل الفسوق فهو يخاف من الليالى ويراها تنتهب مدته فى الحياة فيسبق لاقتناص مايستطيع اقتناصه من طيب اللذات .

ثم ننظر فإذا عمر أبى نواس يميل إلى الغروب وعندئذ ينفر من اللذات تجملا فيقول :

أيا من بين باطيـــة وزق ... وعود فى يدى غان مغنى
إذا لم تنه نفسك عن هواها ... وتحسن صونها فإليك عنى
فإنى قد شبعت من المعاصى ... ومن إدمانها وشبعن منى
ومن أسوا وأقبح من لبيب ... يرى متطربا فى مثل سنى ؟

ونراه يفزع من قرب أجله فيقول :

سهوت وغرنى أمـــلى ... وقـــد قصرت فى عملى
ومنزلة خلقت لهـا ... جعلت لغيرها شغلى
يظل الدهر يطلبنى ... ويتحونى على عجل
فأيامى تقربنى ... وتدنينى إلى أجلى

أو يجزع من الشيب فيقول :

انقضت شرتى فمنعت الملاهى ... إذ رمى الشيب مفرقى بالدواهى
ونهتنى النهى فملت إلى العـ ... ـدل وأشفقت من مقالة ناه
أيهـا الغافل المقيم على السهو ... ولاعـذر فى المقام لساه
لا بأعمالنا نطيق خلاصاً ... يوم تبدو السماء فوق الجباه

ثم نراه ينظر إلى العمر نظرة فلسفية إذ يقول :

إن مع اليوم فاعلمن غـدا ... فانظر بما ينقضى بجىء غده
ما ارتد طرف امرىء بلذته ... إلا وشىء يموت من جسده

والبيت الثانى يمثل عند الشعور به أقصى غايات الخوف والجزع .

ولأبى نواس نظرات فى الناس والحياة ، فالناس عنده يتسللون من

الهالكين وإذ انتسب الرجل فهو ابن فلان الهالك ابن فلان الهالك وهكذا دواليك إلى آدم فنسبهم فى الهلاك نسب عريق والحياة عنده عدو يلبس ثوب الصديق فتراه يقول :

أرى كل حى هالكا وابن هالك وذا حسب فى الهالكين عريق
فقل لقريب الدار إنك ظاعن إلى منزل نائى المحل سحيق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

وهذه النظرة على جانب من الدقة وطرافة الخيال فأنساب الناس مطمورة فى التراب والدنيا تبدو فى زينتها وتبتسم كل يوم ولكنها تعطينا بثمن غال عزيز فهى تأخذ العمر والعافية . وأى شىء أثمن من العمر والعافية ؟ لا شىء.

وأبو نواس على مابه يثق بالله ويدعو إلى الثقة به ويرى الحاجة إلى الناس من علامات ضعف اليقين فيقول .

لو لم تكن فى الناس متهما لم تمس محتاجا إلى أحد

وشهرة أبى نواس بالحلاعة والمجون لم تمنع أهل الفضل من رواية شعره فى الزهد . وقد اختار له ابن أبى الحديد الرائية التى يقول فيها مخاطبا الآدميين

يابنى النقص والعيب وبنى الضعف والخور
وبنى البعد فى الطبـ ـاع على القرب فى الصور

وفى البيت الثانى نظرة فلسفية لاتنكر على أبى نواس وقد خبر طوائف الناس الكثيرة من خلق الله.

ولقد حدث أحمد بن يحى ثعلب قال : كنت أحب أن أرى أحمد بن حنبل فصرت إليه فلما دخلت عليه قال لى : — فيم تنظر ؟ فقلت : فى النحو والعربية فأنشدنى أبو عبد الله أحمد بن حنبل .

إذا ماخلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل على رقيب
ولاتحسبن الله يغفل مامضى ولا أن مايخفى عليه يغيب

لهونا عن الأيام حتى تنابعت ذنوب على آثارهن ذنوب
فياليت أن الله يغفر ما مضى ويأذن فى توباتنا فنتوب(١)

وهذه الأبيات من شعر أبى نواس وحسبه شرفا أن يروى شعره أحمد ابن حنبل .

وفى ديوان أبى نواس باب اسمه « الزهد يشتمل على قصائد ومقطوعات تمثل رأى الشاعر فى بعض الأزمات النفسية والأخلاقية .

وهذا الشاعر يتفق له أحياناً أن ينطق بأبيات هى نماذج من الندم الموجع وهو يتحدث عن المجون .

وتعليل ذلك أن لبعض النفوس الجوانح صبوات إلى ماضى الرشد من طمأنينة وأمان .

ومن هذا كله نستطيع أن نقول : إن أبا نواس كان من شعراء الزهد وكان صادقا فيه فى آخر حياته ...

والزهاد فى الغالب تكون لهم فى مبدأ حياتهم هفوات وصبوات ثم ينتهجون النهج السوى بعد الشعور بالضياع فى طريق الضلال والانحراف .

أبو العتاهية أقبل فى بعض أدوار حياته على التنسك والزهد :

ومن شعراء الزهد فى العصر العباسى « أبو العتاهية » فلقد كان غزير البحر لطيف المعانى سهل الألفاظ كثير الافتنان قليل التكلف يغلب الزهد على شعره إلا أنه كثير الساقط المرذول مع ذلك وأكثره فى الزهد والامتثال(٢) .

---

(١) تاريخ بغداد ٥/٢٠٤ .
(٢) الأغانى جـ٤ ص٢

ولكن القليل من زهديات أبى نواس أحتمل بروح الصدق غالباً من كثرة أبى العتاهية ، وكان فى صباه لا يتخير أصدقاءه من خيار الناس فلما تقدمت به السن مال إلى الرزانة والجد ، ولكن ما ضيعه فى صحبة الفارغين ظل يلاحقه طول حياته وظل معاصروه يتهمونه بتكلف الزهد ويتقولون عليه الأقاويل .

قال ثمامة بن أشرس : أنشدنى أبو العتاهيه :

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه	تملكه المال الذى هو مالكه
ألا إنما مالى الذى أنا منفق	وليس لى المال الذى أنا تاركه
إذا كنت ذا مال فبادر به الذى	يحق وإلا استهلكته مهالكه

فقلت له : من أين قضيت بهذا ؟ قال : من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . « إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت » وفى رواية « أو تصـــدقت فأبقيت » .

فقلت له : أتؤمن بأن هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه الحق ؟ قال : بلى .

قلت : فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بدرة فى دارك(١) ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكى وتقدمها ذخراً ليوم فقرك وفاقتك؟ فقال : يا أبا معن والله إن ما قلت لهو الحق ولكنى أخاف الفقر والحاجة إلى الناس فقلت : بم تزيد حال من افتقر على حالك وأنت دائم الحرص دائم الجمع شحيح على نفسك لا تشترى اللحم إلا من عيد إلى عيد ؟ فترك جواب كلامى كله ثم قال لى :

---

(١) البدرة : عشرة آلاف درهم .

والله لقد اشتريت فى يوم عاشوراء لحماً وتوابله وما يتبعه بخمسة دراهم فلما قال لى هذا القول أضحكنى حتى أذهلنى عن جوابه ومعاتبته فأمسكت عنه وعلمت أنه ليس ممن شرح الله صدره للإسلام(١) .

والحقيقة أن فى هذه القصة فكاهة واختراعها يدل على غرام من عاصروا أبا العتاهية بتعقب أخباره وحمل الناس على الارتياب فى حقيقه ما كان يعلن من الزهد .

وليس من المستبعد أن يكون الدافع على هذا هو الحسد والحقد على أبى العتاهية من أقرانه وأترابه كما يحدث عادة بالنسبة للأشخاص المبرزين .

والكلام عن بخل أبى العتاهية وشحه ومنعه الزكاة كثير جدا يجده القارىء فى الأغانى وغيره ، والأقاصيص المروية عنه بعضها صحيح وبعضها منحول ولكنها فى جملتها تدل على أن معاصريه تلقوا مسلكه فى الزهد بالغمز والسخرية واستكثروا عليه أن يكون من أهل الحكمة والدين . وقد كانت له آراء فيها تطرف ولم يسلم من التهمة بالزندقة وكان من العسير ان تمر الأزمات العقلية فى زمانه ولا تمسه بسوء ، وقد استطاع خصومه أن يهيجوا عليه العامة وأن يدعو أنه زنديق ويتهموه بالتهاون بالجنة وابتذال ذكرها فى شعره حيث يقول :

كأن عتابة من حسنها ... دمية قس فتنت قسها
يارب لو أنسيتنيها بما ... فى جنة الفردوس لم أنسها(٢)

ولاتهامه بالزندقة أخبار كثيرة وذلك يدل على أن معاصريه لم يتقبلوا زهده بأحسن القبول .

---

(١) الأغانى ج ٤ ص ١٧ .
(٢) الأغانى ج ٤ ص ١٦ .

ومما لا شك فيه أن أبا العتاهية شغل بتقويم نفسه وأفبـــل فى بعض أدوار حياته على التنسك والزهد ولا يخرج حاله عن فرضين :

الأول : أن يكون مخلصاً .

الثانى : أن يكون مرائياً .

فإن كان مخلصاً فشعره شاهد ذلك الإخلاص وإن كان مرائياً فهو ورياؤه وأشعاره من مظاهر التصوف ، لأن التخلق بأخلاق الزهاد كان لهم سلطان فى ذلك العهد وكان يسر أباالعتاهية أن يقف من الخلفاء ذلك الموقف المشرف الذى كان يقفه عمرو بن عبيد وعبد الله بن المبارك وقد صح له شىء من تلك الأحلام فذكر بالخير فى مجلس الرشيد ومجلس المأمون(١) ومن المسلم به أن مجموعة أخبار أبى العتاهيه تمثله رجلا يضجره القلق ويقل فى حياته الأمن والاطمئنان ودليل ذلك ما حدث به أبو عكرمة عن شيخ له من أهل الكوفة قال : دخلت مسجد المدينة ببغداد بعد أن بويع الامين محمد بسنة فإذا شيخ عليه جماعة وهو ينشد :

لهفى على ورق الشباب وغصونه الخضر الرطاب
ذهب الشباب وبان عنى غير منتظر الإياب
فلأبكين من البلى ولأبكين من الخضاب
إنى لآمل أن أخلد والمنية فى طلابى

قال : فجعل ينشدها وإن دموعه لتسيل على خديه فلما رأيت ذلك لم أصبر أن ملت فكتبتها وسألت عن الشيخ فقيل لى : هو أبو العتاهية(٢) .

فهذه الحسرة على الشباب وأيام التصابى تصوره رجلا مغلوبا على اللذات

---

(١) الأغانى ج ٤ ص ٥١ - ٥٢ .

(٢) الأغانى ج ٤ ص ٥١ - ٥٢

وتطعن فى صحة زهده فى ظاهر الأمر ولو كان زهده عن إخلاص مطلق لرمى بذكريات الشباب حيث رمتها الأيام .

وليس معنى هذا أن الزهد يقضى على جميع الصبوات القلبية وأن بكاء الشباب لا يمر بقلب رجل زاهد وأن الحسرة على أيام التصابى لا تكون إلا من رجل مزعزع اليقين ... لا . ولكن ذلك يكون شاهدا على أن الشاعر ظل يعيش إلى أخريات أيامه بقلب مفتون بأيام الصبوة والفتك وإن كان شعره فى الزهد قد ملأ الدنيا وغزا صوامع الرهبان(١) .

وكان شعره سهلا لينا وكانت له فى ذلك سياسة يكشف عنها حديث نقله صاحب الأغانى عن كتاب هرون بن على قال :

حدثنى على بن مهدى عن ابن الأبيض قال : أتيت أبا العتاهية فقلت له إنى رجل أقول الشعر فى الزهد ولى فيه أشعار كثيرة وهو مذهب استحسنه لأنى أرجو الآثم فيه وسمعت شعرك فى هذا المعنى فأحببت أن أستزيد منه فأحب أن تنشدنى من جيد ما قلت فقال أعلم ما قلته ردىء ... قلت : وكيف ؟ قال : لأن الشعر ينبغى أن يكون مثل أشعار الفحول المتقدمين أو مثل شعر بشار وابن هرمة فإن لم يكن كذلك فالصواب لقائله أن تكون ألفاظه مما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعرى ولاسيما الأشعار التى فى الزهد فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك ولا من مذاهب رواة الشعر ولا طلاب الغريب وهو مذهب أضعف الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء ، وأعجب الأشياء إليهم ما فهموه فقلت : صدقت . ثم أنشدنى قصيدته :

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى تباب

---

(١) الأغانى ج ٤ ص ١٠٠

ألا يا موت لم أر منك بدا أتيت وما تحيف وما تحابى
كأنك قد هجمت على مشيبى كما هجم المشيب على شبابى(١)

وهذا اعتذار عن إيثار السهولة واللين وهو لا يمنع أن يقع للشاعر شىء من الكلام الجزل كأن يقول :

طول التعاشر بين الناس مملول ما لابن آدم إن فتشت معقول
يا راعى الشاء لا تغفل رعايتها وأنت عن كل ما استرعيت مسئول
إنى لفى منزل ما زلت أعمره على يقين بأنى عنه منقول
وليس من موضع يأتيه ذو نفس إلا وللموت سيف فيه مسلول
لم يشغل الموت عنا مذ أعد لنا وكلنا عنه باللذات مشغول
ومن يمت فهو مقطوع ومجتنب والحى ما عاش مغشى وموصول
كل ما بدا لك فالآكال فانية وكل ذى أكل لا بد مأكول

ولأبى العتاهية فى زهدياته مذاهب فهو يدعو إلى اليأس من الناس كأن ينفر من الثقة بالأصدقاء فيقول :

ليخل امرؤ دون الثقات بنفسه فما كل موثوق به بناصح الجيب

أو يتهمهم بضعة النفس والتبعية للأغنياء فيقول :

وابتغ ما استطعت عن الناس الغنى فمن احتاج إلى الناس ضرع
قد بلونا الناس فى أخلاقهم فرأيناهم لذى المال تبع

أو يحكم بأنهم لا يتعارفون إلا بفضل ما ستروا من نوازع الشر فيقول:

وفى الناس شر لو بدا ما تعاشروا ولكن كساه الله ثوب غطاء

أو يصفهم بالفضول فيقول :

وللناس خوض فى الكلام وألسن وأقربها من كل خير صدوقها

---

(١) الأغانى حـ ١/ ٧

وما صح إلا شاهد صح غيبه وما تنبت الأغصان إلا عروقها

أو يرميهم بالبخل فيقول:

لو رأى الناس نبيا سائلا ما وصلوه
أنت ما استغنيت عن صا حبك الدهر أحوه
فإذا احتجت إليه ساعة جحك فوه

وتارة يدعو إلى القناعة فيقول :

متى تنقضى حاجات من ليس واصلا إلى حاجة حتى تكون له أخرى
وإن امرأ يسعى لغير نهاية لمنغمس فى لجة الفاقة الكبرى

وفى هذين البيتين صورة جيدة للشقاء الذى يتتابع وفقا لتتابع الرغائب ، وقد زاد هذا المعنى إيضاحا حين قال كلمة ثانية :

ليس على المرء فى قناعته إن هى صحت أذى ولا نصب
من لم يكن بالكفاف يقتنع لم تكفه الأرض كلها ذهب

وتارة يسلك مسالك التخويف من عواقب الحياة وله فى ذلك معان جيدة كقوله فى نقص الأنفس من حيث تكون الزيادة فى الفتوة :

ونفس الفتى مسرورة بنمائها وللنقص تنمو كل ذات نماء

وقوله فى الترهيب من الغرور بما يملك الرجال :

يارب ذى نشب تكنفه حب الحيـــاة وغره نشبه
قد صار مما كان يملكه صفرا أو صار لغيره سلبه
يا صاحب الدنيا المحب لها أنت الذى لا ينقضى تعبه
إن استهانتها بمن ضرعت لبقدر ما تسمو به رتبه
وإن استوت للنمل أجنحة حتى يطير فقد دنا عطبه
إنى حلبت الدهر أشطره فرأيته لم يصف لى حلبه

حلم الفتى عمـــا يزينه وتمام حلية فضله أدبه

ولأبى العتاهية لحظات يقف فيها موقف المرشد كأن يقول :

الحرص داء قـد أضر ر بمن ترى إلا قليلا
كم من عزيز قد رأيـ ته الحرص صيره ذليلا
فتجنب الشهوات واحـ ذر أن تكون لها قتيلا
فلرب شهوة ساعة قد أورثت حزنا طويلا
من لم يكن لك منصفا فى الود فابغ به بديلا
وعليك نفسك فارعها واكسب لهـا فعلا جميلا
ولقلما تلقى اللئيم عليك إلا مستطيلا
والمرء إن عرف الجـ يل وجدته يبغى الجزيلا

وقد تغلب عليه الحكمة والرغبة فى النصح كأن يدعو إلى صيانة الوجه عن السؤال فيقول :

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله عوضا ولو نال الغنى بسؤال

أو يدعو إلى القناعة بالقليل فيقول :

متى تمسى وتصبح مستريحـا وأنت الدهر لا ترضى بحال
وقد يجرى قليل المـال مجرى كثير المـال فى سد الخلال
إذا كان القليل يسد فقرى ولم أجد الكثير فلا أبالى

أو يحبب إلى الناس الصمت فيقول :

الصمت أجمل بالفتى من منطق فى غير حينه
لا خير فى حشو الكـ ـلام إذا اهتديت إلى عيونه

ولأبى العتاهية أرجوزة مزدوجة سماها « ذات الأمثال »(١)

---

(١) الأغانى ٤ / ٣٦

وقد جرى ذكرها بحضرة الجاحظ وأنشد المنشد بقوله :

يا للشباب المرح التصابي روائح الجنة فى الشباب

فقال الجاحظ للمنشد : قف ثم قال : انظروا إلى قوله روائح الجنة فى الشباب ، فإن له معنى كمعنى الطرب الذى لا يقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير ، وخير المعانى ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه .(١)

وتلك الأرجوزة تجمع بين الزهد والحكمة فهى من بدائع أبى العتاهية وهى دستوره فى الأخلاق .

ولنكتف منها بهذه الشذرات :

حسبك مما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفافا من اتقى الله رجا وخافا
هى المقادير فلمنى أو فذر إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر
لكل ما يؤذى وإن قل ألم ما أطول الليل على من لم ينم
ما انتفع المرء بمثل عقله وخير ذخر المرء حسن عمله
إن الفساد ضده الصلاح ورب جد جره المزاح
من جعل الغمام عينا هلكا مبلغك الشر كباغيه لكا
إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أى مفسدة
ما تطلع الشمس ولا تغيب إلا لامر شأنه عجيب
ما زالت الدنيا لنا دار أذى ممزوجة الصفو بألوان القذى
الخير والشر بها أزواج لذا نتاج ولذا نتاج
لكل إنسان طبيعتان خير وشر وهما ضدان
عجبت حتى غنى السكوت صرت كأنى حائر مبهوت

---

(١) نفس المصدر السابق .

وهذه الأرجوزة التى قيل إن له فيها أربعة آلاف مثل (١) لا يمكن أن تصدر إلا عن رجل مشغول بالأخلاق وابتداع الحكم والأمثال لابد له من صفاء و الصفاء ليس من حظ النفوس المقتولة بالشواغل الدنيوية . فلا مفر إذن من الاعتراف بأن أبا العتاهية استطاع أن يخلص من دنياه بعض الخلاص فى أخريات حياته ليفرغ لنظم أشباه هذه الأمثال . ولقد كان بعض المعاصرين لأبى العتاهية يغضون من قيمته الأخلاقية وكانت لهم من دنيا ذلك الشاعر شبهات تبرر التجنى عليه من وجهة نظرهم . والواقع أن لغو المعاصرين ليس بحجة فالحسد يحمل الناس على ارتكاب جريمة الإفك والبهتان ، والمرء قد يحسد على السمعة الطيبة أكثر مما يحسد على الثراء العريض ولاسيما فى عالم المنازعات الأدبية ، وأكثر الرواة والشعراء لعهد أبى العتاهية كانت سمعتهم مما تلغط به الجماهير وكانت لهم أندية يكثر فيها اللغو وتقع فيها الآثام حول موائد الشراب وكان من العزيز عليهم أن يطير أبو العتاهية فيحلق فى سماء الفضيلة ويثير شعره دموع بعض الخلفاء .

ولهذا كله نستطيع أن نقرر أن أبا العتاهية كان من شعراء الزهد وكان صادقا فيه فى أخريات حياته وما كان يصدر منه أحيانا من التحسر والندم على أيام الشباب إنما هو أمر عادى فى كل نفس بشرية وإنما الذى يتنافى مع الزهد أن يضيق المرء بسلوكه المستقيم ويشتاق إلى العودة إلى طريق الانحراف والرذيلة .

وشعور أبى العتاهية بتفاهة الدنيا قد تمثل له عند الموت فى صورة جديدة فقد أعلن يأسه من وفاء الأصدقاء وزهده فى بكاء الباكيات حين اشتهى أن يغنيه مخارق .

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ٢٧

سيعرض عن ذكرى وتنسى مودتى
ويحـــدث بعـدى للخليل خليـل
إذا ماانقضت عنى من الدهر مـدتى
فإن غناء الباكيات قليل (١)

وقد نظم أبياتا لتوضع على قبره وكذلك فعل أبو نواس . والكتابة على القبور سنة قديمة عرفها المصريون والاشوريون ولكنها كانت فى الأغلب وصايا يراد بها زجر من يطمعون فى انتهاب مافى القبور من الذهب والفضة . أما أبو العتاهية وأبو نواس فكان شعرهما فى التحذير من عواقب العيش ، والمشرف على الموت يحب أن يكون أفصح الناس فى وصف الدنيا بالغدر وسرعة الزوال ومن يعيش حتى يمد يده لمصافحة الموت يعرف هـــذا الغرض !! (٢)

حياة أبى العتاهية الأدبية:

أما حياة أبى العتاهية الأدبية فتتجلى لنا فى مظهرين :

حياة الغزل والمنادمة وحياة الزهد والتقشف حيث أجمع المؤرخون على أن شاعرنا كان فى أول أمره يعيش كسائر شعراء عصره فيمدح ويرثى ويتغزل وفى القصيدة التى أنشدها يوم تولى المهدى الخلافة مايدل على علو كعبه فى باب المديح فقد روى أن بشارا الشاعر سمعه ينشد هذه القصيدة التى يقول فيها

أنته الخـــلافة منقادة إليـه تجـــر أذيالها
ولم تـك تصلح إلا له ولم يـك يصلح إلا لها

---

(١) الأغانى جـ٤ ص١٠٩
(٢) أثر التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق للدكتور زكى مبارك جـ١ ص ٨٨ باختصار وتصرف .

ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعه بنات القلو ب لما قبل الله أعمالها

فاهتز بشار طربا وقال لمن حوله ويحكم أنظروا ألم يطر الخليفة عن أعواده .

وله فى الغزل أيضا لطائف تذكر ولقد انصرف فى أول عهده إلى حياة اللهو والتهتك واشتهر بها حتى زعموا أنه كنى بأبى العتاهية لانه كان يحب التهتك والمجون والتعته (١)

ولكنه لم يكد يبلغ الخمسين حتى تحول عن سبيلهم وكان ذلك على ماروواه صاحب الأغانى فى خلافة الرشيد . قال : وكان أبو العتاهية لايفارق الرشيد فى سفر ولا حضر إلا فى طريق الحج وكان يجرى عليه فى كل سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والمعادن فلما قدم الرشيدالرقة (وذلك سنة ١٨١هـ) لبس الشاعر الصوف وتزهد وترك حضور المنادمة والقول فى الغزل (٢) وإننا لنتساءل ما الذى دفعه إلى ترك ماكان عليه الشعراء والتزام طريقة الزهد والتنسك ؟ ولكى تتضح لنا الإجابة ينبغى أن نتأمل وننظر فيما يلى :

١ — حالته النفسية واستعداده الفطرى لذلك .

٢ — تأثر نفسه بتهتك معاصريه وتماديهم فى أسباب الترف .

٣ — فشله فى حبه لفتاة من جوارى المهدى .

٤ — ميله إلى الطريقة الزهدية فى الشعر .

أما استعداده الفطرى فليس هناك من دليل صريح عليه ، ولكننا نستنتج مما عرف عن أبى العتاهية من حب المال والحرص على الدنيا أنه

---

١ — يراجع مجلسه مع أبى نواس وصريع الغوانى فى العقد ٣ — ١٦٤ ويراجع الأغانى ٣ — ١٢٧ . (٢) الأغانى ٣ — ١٥٧

كان ذا نظر فى العواقب وعلى شىء حتى فى إبان شبابه — من ضبط النفس بما لا نراه عادة فى متهتكى عصره فلم يكن شديد الميل إلى الإنفاق فى سبيل الشهوات — وبعبارة أخرى لم تكن مشاركته لزملائه فى لهوهم أيام شبابه لتقتل فيه ميله إلى الحرص والرزانة . جاراهم ولكن إلى حين ، واندفع فى تيار الحياة ولكنه لم يرخ لنفسه العنان ، ولم يلبث أن رأيناه يتراجع عنه مشمئزاً مهيبا بالآخرين أن يسلكوا سبيل الرشاد وأن يعتبروا بظروف الزمان :

وعما لاشك فيه أنه كان لعصره تأثير عليه وأن ذلك التأثير تحول إلى عاطفة شعرية مغايرة لعواطف زملائه يومئذ فترك الغزل والمنادمة واختط لنفسه أسلوبا آخر أحب أن ينفرد فيه . وإنا لنلمح ذلك عما نقله لنا ابن منظور عن أبى مخلد الطائى قال : جاءنى أبو العتاهية فقال لى : إن أبا نواس لا يخالفك وقد أحببت أن تسأله ألا يقول فى الزهد شيئا فإنى قد تركت له المديح والهجاء والخمر والرقيق وما فيه للشعراء ، وللزهد شوقى فبعث إلى أبى نواس فجاء إلى وأخذنا فى شأننا فقلت لأبى نواس : إن أبا إسحاق (أبا العتاهية)(١) من قد عرفت جلالته وتقدمه وقد أحب أنك لا تقول فى الزهد شيئا فوجم أبو نواس عند ذلك وقال : يا أبا مخلد قد قطعت على ما كنت أحب أن أبلغه من هذا ولا أخالف أبا إسحاق فيما رغب إليه .(٢) فأبو العتاهية إذن اصطنع الزهد واتخذه طريقة فنية مندفعا إليه بشوق نفسه إلى هذا النوع من الشعر .

وإذا صح هذا من الاستعداد الفطرى للشاعر وأنه مجاراة لهذا الاستعداد

---

(١) كنيته الحقيقية أبو إسحاق وإنما أبو العتاهية لقب له .
(٢) أخبار أبى نواس ص ٧٠

رأى أن ينفرد بالزهد دون سائر أبواب الشعر .

فيبقى أن ننظر فى المحرك المباشر الذى حرك فى نفسه شهوتها الزهدية وحبب إليه ترك حياته الأولى .

هذا المحرك هو على ما يقول المؤرخون فشله فى حبه لعتبة جارية الخيزران أم الرشيد وفى ذلك يقول المعرى (١)

الله ينقل من شا ٠ رتبة بعد رتبة
أبدى العتاهى نسكا وتاب عن حب عتبة

وعن المسعودى أن أبا العتاهية لبس الصوف ليأسه من عتبة (٢)

وكان ذلك أيام الرشيد وقد آثر السجن على أن يرجع بعدها إلى قول الغزل .(٣)

أما أنه أحب هذه الجارية حبا شديدا فذلك ما أجمع عليه المؤرخون .

ومن غزله فيها قوله :

يا عتب سيدتى أمالك دين حتى متى قلبى لديك رهين
وأنا الذلول لكل ما حملتنى وأنا الشقى البائس والمسكين
وأنا الفداة لكل باك مسعد ولكل حب صاحب وخدين
لا بأس إن لذلك عندى راحة للصب أن يلقى الحزين حزين
يا عتب أين أفر منك أميرتى وعلى حصن من هواك حصين

وقال من قصيدة :

كأنها من حسنها درة أخرجها اليم إلى الساحل
كأنما فيها وفى طرفها سواحر أقتلن من بابل
لم يبق منى حبها ما خلا حشاشة فى بدن ناحل

---

(١) اللزوميات ١/١١٨ (٢) المسعودى ٧/٢٢٦
(٣) الأغانى ٣ — ١٤٠

ويذكر صاحب زهر الآداب أن أبا العتاهية ضرب مئة صوت ونفى إلى الكوفه من أجل غزله بعتبة وأن المهدى قال حين نفاه : أبى يتمرس ولحرمى يتعرض وبنسائى يعبث (١)

ويذكر ابن قتيبة أنه حبسه ثم تشفع له يزيد بن منصور خال المهـــدى فأطلقه (٢) والظاهر أنه خاف المهدى فانقطع عن ذكر الجارية فلما مات عاد أمله فطلبها من الرشيد كما روى المسعودى ولكنه باء بالفشل . . . وبين أول حبه لعتبة ويأسه منها نحو من عشرين سنة بقيت فيه شرارة الحب مشتعلة برغم كل الموانع وبرغم أنه كان متزوجا ،وهو حب شديد وغريب فى عصر كعصره يذكرنا بحب شاعر إيطاليا لفتاته بياتريس وكان له من التأثير فى نفسه كل حياته ... فمن فشل دانتى نشأت الكوميديا الإلهية فهل من فشل أبى العتاهية نشأ شعره الزهدى ؟ قد يكون ذلك .

الموازنة بين أبى نواس وأبى العتاهية :

مـــا لا شك فيه أن من أهم شعراء الزهد فى العصر العباسى الأول « أبا نواس » و « أبا العتاهية » ،وعندما نحاول الموازنة بينهما نجد أن كليهما متشائم : ذاك فى زهوه وسروره وهذا فى تزهده وتقتيره .

وأبو نواس لم يدرك قيمة الحياة ولم يفهم مراميها العالية فأنفق نفسه وهواه فى سخائفها وقضى جل حياته فى العبث واللهو والمجون .

وأبو العتاهية أخطأ الغاية من وجود الفرد فى هذه الحياة ومن علاقته بالمجتمع فنعى عليه ذلك ودعاه إلى نبذ الحياة الدنيا والاهتمام بالآخرة دون مقياس عادل . وكلاهما مخطىء وغير مصيب فى رأينا: ذاك لإفراطه فى أباطيلها

---

(١) زهر الآداب ٢ — ٣٦

(٢) الشعر والشعراء (ليدن) ٤٩٨

وهذا لإفراطه فى التزهيد بها .

ولو أننا جارينا أبا العتاهية فى أقواله وقفنا عما يطلبه فى إرشاداته لتحتم علينا أن نوقف كل جهاد وكل سعى وكل عمـــل ونعيش عيشة الخمول والكسل .

وأين هذا مما يطلبه الإسلام دين الدنيا والآخرة الذى يوجه الفرد إلى الطريق الصحيح عندما يقول القرآن الكريم وهو كتاب الإسلام : ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين »(١)

ويقول : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » (٢)

وأين هذا من الرقى الاجتماعى الذى يتطلب من كل فرد أن يسعى ويجد ليدرك أقصى ما يستطيع إدراكه حيث يقول ناهيا عن ذلك :

سأقنع ما بقيت بقوت يوم ولا أبغى مـكاثرة بمـال
تعالى الله يا سـلم بن عمرو أذل الحرص أعناق الرجال
فما ترجو لشىء ليس يبقى وشيكا ما تغيره الليـــالى

وأما إذا كان معناه الوقوف عن الجهاد والبعد عن أسباب التقدم وطلب الراحة فى زوايا المناسك والظهور بمظهر الفقر والتصوف فهو الخمول الذى يمجه الإسلام والذى يزيد من أكدار الإنسان ويبعده عن سعادته المنشودة ولا سيما عندما يطبق ذلك على البشرية جمعاء .

وهنا — فى رأيى — وجه الضعف فى رسالة أبى العتاهية الشعرية فى الزهد : حيث قام ينشد لنا أناشيد الدين دون أن يجتهد فى تطبيقها على الحياة

---

(١) سورة القصص آية ٧٧
(٢) سورة الملك آية ١٥

العملية بما يرضى الدين ، وكان فى شعره يقلد الزهاد ورجال الدين تقليدا .

ولعل عذره فى ذلك ما عاناه من شدائد ومتاعب من مخالطة البشر والتعامل معهم مما أحدث فى نفسه شعوراً بالنفور من الحياة والأحياء جميعا . وإلا فنى وسع من كان فى مقدرته الشعرية أن يستخلص من حياة عصره صوراً اجتماعية عالية يصورها فيسرد ما بها من جمال الفضائل الدينية والآداب أو قباحة أضدادها على نحو ما يفعل الاجتماعيون من شعراء وناثرين.

هذا من حيث الغاية والمضمون فى شعر أبى العتاهية الزاهد .

أما من حيث اللفظ والشكل والإطار الفنى فنحن نجد أحمد بن زهير يقول سمعت مصعب بن عبدالله يقول : أبو العتاهية أشعر الناس , فقلت بأى شىء استحق ذلك فقال بقوله :

تعلقت بآمال طوال أى طوال
وأقبلت على الدنيا ملحاً أى إقبال
أيا هذا تجهز لـ فراق الأهل والمال
فلا بد من الموت على حال من الحال

ثم قال مصعب : هذا كلام سهل لا حشو فيه ولا نقصان يعرفه العاقل ويقر به الجاهل . (١)

وقال ابن الأعرابى وقد أثاره رجل رمى أبا العتاهية بالضعف : فوالله ما رأيت شاعراً قط أطبع ولا أقدر على بيت منه وما أحسب مذهبه إلا ضربا من السحر . (٢)

والمتأمل لشعره يثبت لديه معظم ما ذكر من هذه الأوصاف .

---

(١) الأغانى ٣ — ١٣٠
(٢) الأغانى ٣ — ١٣١

وأهم خصائص شعره الفنية ثلاث :

١ — سهولة الألفاظ : وهى مذهبه فى جميع قصائده .

نقل الأصفهانى قوله لأبى العتاهية وقد جاء يستزيده من شعره: فالصواب أن تكون ألفاظه مما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعرى ولاسيما الأشعار التى فى الزهد وهو مذهب أضعف الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء والعامة وأعجب الأشياء إليهم ما فهموه .(١)

وقد عرف له نقدة الشعر ذلك .

فقال ابن رشيق : ومنهم من ذهب إلى سهولة اللفظ واغتفر فيها الركاكة واللين المفرط كأبى العتاهية والعباس بن الأحنف ومن تابعهما (٢)

وهم يرون الغاية قول أبى العتاهية :

يا إخوتى إن الهـــوى قاتلى فسيروا الأكفان من عاجل
ولا تلوموا فى إتباع الهوى فإننى فى شغل شاغل
عينى عـــلى عتبة منهلة بدمعها المنسكب السائل
يا من رأى قبلى قتيلا بكى من شدة الوجد على القاتل
بسطت كفى نحـــوكم سائلا ماذا تردون على السائل ؟

٢ — رشاقة التعبير وهى من مزايا الشعراء المطبوعين ويراد بها البعد عن التكلف والتعقيد فعندما نقرأ قصائد أبى العتاهية نجدها رشيقة المعنى تسيل عذوبة وطلاوة وقد صدق الخطيب البغدادى إذ قال :

وكان سهل القول قريب المأخذ بعيداً عن التكلف متقدما فى الطبع(٣)

---

(١) الأغانى ٣ — ١٦١
(٢) العمدة ١ — ٨١
(٣) المثل السائر ١٠٥

وفى رشاقة شعره يقول ابن الأثير : وهذا أبو العتاهية كان فى عز الدولة العباسية وشعراء العرب إذ ذاك كثيرون موجودون وإذا تأملنا شعره وجدناه كالماء الجارى رقة ألفاظ ولطافة سبك وليس بركيك ولا واه وحكم ابن الأثير فيه حكم خبير إلا أنه تغاضى عن بعض ركاكته .

٣ — سرعة الخاطر وما يقترن بذلك أحيانا من الركاكة . قيل فيه كيف تقول الشعر ؟ قال ما أردته قط إلا مثل لى فأقول ما أريد وأترك ما لا أريد .

وكان يقول : لو شئت أن أجعل كلامى كله شعراً لفعلت (١)

ووصفه ابن قتيبة بقوله : وكان أحد المطبوعين وممن يكاد يكون كلامه كله شعراً .

أما أبو نواس فشعره من حيث اللفظ والشكل فيه ما يشعر باطلاعه على آراء الفلاسفة والمتكلمين .

حدث الآمدى عن المبرد قال : ما تعاطى الشعر أحد من المحدثين أحذق من أبى نواس . وحكى ابن الجراح عن ابن عكرمة عامر الضبى عن ابن السكيت أن أباعمر الشيبانى قال : لولا ما أخذه فيه أبو نواس من الإرفاث لاحتججت بشعره لأنه كان يحكم القول ولا يخلطه . (٢)

ولابن الأعرابى وابى عبيدة وابن خالويه شهادة كهذه الشهادة . (٣)

---

(١) الأغانى ٣ — ١٣١

(٢) ابن منظور ص ٢ ، ٥٨

(٣) يراجع هذه الشهادات لحمزة الأصفهانى فى مقدمة ديوان أبى نواس (مصر) .

وابن شرف القيروانى يخالف من تقدم ويصف شعر أبى نواس بالضعف وأنه نافق عند العوام كاسد عند النقاد .

وبهذا كله نكون قد ألقينا الضوء عل شاعرين من أهم الشعراء فى العصر العباسى الأول شغل شعرهما المجتمع العباسى ما بين مادح وقادح ، ونستطيع أن نقول : إنهما خلطا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهما إنه هو الغفور الرحيم .